الأدب الشعبي بين إشكالية التعريف والمصطلح

La littérature populaire: Problématique de définition et celle de terminologie

أ.بلـــــوافي امحمـــــد
المركز الجامعي لتامنغست
(***belouafimahammed@gmail.com***)

مُلخّص البحث

يتناول هذا البحث المفاهيمي محاولة حلّ الإشكالية القائمة بين التعريف بهذا الفنّ ومصطلحه، من خلال مقدمة تاريخية للمصطلح، وتحديد المفهوم والخصائص، وبيان أنواع الأدب الشعبي، والعلاقة بين مصطلحي الأدب العامي، والأدب الشعبي.

Rèsumé

Ce travail, portant sur l'aspect conceptuel, est une tentative de recherche qui opte à résoudre la problématique liée à la définition de la littérature populaire et ses concepts à travers une introduction historique du terme. Il s'agit aussi de définir cette littérature, de déterminer ses caractéristiques et de montrer les types de la littérature populaire. Cette tentative veut, en outre, éclairer l'emploi des deux termes; littérature vernaculaire et celle de littérature populaire.

Abstract

Popular literature between the problem of definition and the term Folk literature between the problematic of definition and terminology

This research deals with the conceptual attempt to resolve the problematic relation between the definition of this art and its term, through the historical introduction of the term, and the definition of the concept and characteristics, the indication of the types of folk literature, and the relationship between the terms vernacular literature, and folk literature.

1- مقدمة تاريخية للمصطلح (الأدب الشعبي)[1]:

بدايات المصطلح: الأدب الشعبي أو كما يسمى أيضا بالفلكلور؛ يعني -في مفهومه العميق- الآثار والعادات والتقاليد الأدبية الشعبية، هو وجه من وجوه التراث الشعبي، الذي يستغرق مظاهر الحياة الشعبية قديمها وحديثها ومستقبلها، وهو أبقاها على الزمن.

يعتبر "وليم جون تومز William Jhon Thoms" أول من صاغ هذا المصطلح - فولكلور- في سنة 1846. وقد اعترفت جمعية الفولكلور الإنجليزية بهذا المصطلح عند التأسيس سنة 1877.

وكما قلنا فقد جاء هذا الاصطلاح ليخلف عبارة "الآثار الشعبية القديمة (الأثريات) التي كانت تستخدم في دراسة المأثورات والعادات والتقاليد.

يتألف اصطلاح فولكلور من مقطعين Folk ويعني الناس، وLore ويعني معرفة أو حكمة، وتعني الكلمة بذلك معارف الناس أو حكمة الشعب.

ولعل الاهتمام بالمادة الفولكلورية يعود إلى تلك الكتب التي كتبت حول بعض الأجناس البشرية أو الشعوب والأقوام مع نهاية العصور الوسطى، حيث ظهرت عدة دراسات ترمي إلى وصف سكان بعض المناطق، وتؤرخ لحياتهم، مثل كتاب جرمانيا" Germania" لـ تاسيتوس، وكتابات سبستيان فرانك Sbastian Frank التي توخى فيها وصف الأحياء والمدن الألمانية في القرن السادس عشر. وقد استمر الاهتمام بالمادة الفولكلورية في القرون التالية. ونضج خاصة بألمانيا، في منتصف القرن الثامن عشر(18) وبداية القرن التاسع عشر(19)؛ حيث تجسد في جمع الآثار والتقاليد الإنسانية لمختلف الأقاليم، ويلاحظ آنذاك أنّ العناية قد وجهت للثقافة المادية وما يتعلق بالتقاليد والأعراف، وأهملوا إلى حدّ مّا الأدب الشفاهي، غير أنّ هذه الحركة العلمية سرعان ما اتّسعت، وغطت مختلف المجالات مع بداية القرن العشرين، فظهرت دراسات "إريس شميدت Erich Smidt"

"وجون ماير John Meir" "وفلهلم بسلر Vilhelm Passler" و"أدولف شبامر Adolf Spamer" الذين تناولوا تاريخ الفولكلور، ووصفوا أنواعه، ودرسوا المخطوطات القديمة، وفسروا كثيرا من النماذج الفولكلورية.

كما يعتبر الفلندي "**كارل كرون**" الذي أصدر سنة 1886 الجزء الأول من كتابه "الحكايات الشعبية" فضمنه "حكايات الحيوان" ليلحق به بعد ذلك حكايات الملوك سنة 1893. ويعد أول من شغل منصب الأستاذية في هذا العلم في العالم.

ويُعد الهدف من علم الفولكلور في دراسة الجوانب المادية والروحية عند الشعوب، فالشعب هو موضوع الدراسة في علم الفولكلور، والمقصود بالشعب -في نظر هوفمان كراير- هو أولئك الناس الذين يتميزون بنوع من الفكر البدائي، وأنهم لا يبتكرون الثقافة، وإنما يتداولونها، نقلا عن الجماعات أكثر تطورا اجتماعيا وفكريا.

2- أما عن جذور هذا اللون الفنّي في التراث العربي:

من الصعب ربط ظهور الأدب الشعبي بتاريخ معين، وقد ظل الأدب الشعبي مقرونا بالإنسان البدائي صاحب المستوى الحضاري البسيط، فقد مارس صراعا مع الطبيعة وقواها، فشكلت هذه الممارسات رصيده الثقافي والأدبي، فتوارثها أبناؤه عبر العصور، والمتمثلة في الملاحم والأساطير والحكايات الخرافية وحكايات الحيوانات، وحيث أننا نعلم أن العرب كانوا أميين، ينتشرون في هذه البقاع الفسيحة من الأرض بصحراواتها وجبالها، بماشيتها ومصطافاتها، بمدنا وقراها، بخيلها ومضاربها، فإن تعبيرهم عن أنفسهم وأوضاعهم وأحاسيسهم كان لا بد من أن يأتي معاصراً لوجودهم متماشيا معه معبراً عنه. ومن هنا فإن المنطق يقضي بسبق الأدب الشعبي على هذا الأدب التقليدي المعروف، إذ الأدب الشعبي الذي يقوله سواد الناس من رعاة وسقاة، وزراع، وصناع وغزاة وصعاليك وصبيان وشيوخ ورجال ونساء هو الذي يصور الحياة

بتفصيلاتها ووقائعها، لا الأدب التقليدي الخاص، الذي تحكمه التقاليد والرسوم والآداب الاجتماعية ومجالس الشيوخ والملوك.

ولا عبرة هنا باللغة، إذ أنها كانت واحدة في كل الطبقات، ولم يتخلخل بناؤها إلا بعد أن تسرب اللحن إليها في أواسط العهد الأموي وأوائل العهد العباسي بفعل الظروف المعروفة، وأهمها الاختلاط الذي حدث بين شعوب الأرض تحت راية الإسلام العظيم، مما أدى إلى اختلاط اللغات، وبلبلة الألسن، فتولدت حاجة المجتمع إلى الحفاظ على اللغة العربية من الضياع، فجاءت قوانين النحو الصرف، وجاءت ضوابط التعبير، وجاءت أمور كوّنت حاجزاً بين عهد وعهد، وسداً بين بيئة وبيئة، فانكشف الأدب الشعبي، وارتفع الأدب التقليدي، لوصفه الآخذ بالضوابط الجديدة، فغطى بظله على ما عداه، وعني به الناس، وتسلمته المجتمعات، وعنيت به الطبقات، وسجله الرواة والمصنفون، وظلّ الأدب الشعبي في حالة هذه، منقطعاً مستوحشاً بالقياس بالتقليدي، ينتظر العناية والرعاية والتسجيل.

ويبدو أن السجع كان الصورة الأولى من التعبير الفني، ومن الطبيعي أن يظهر على أيدي الكهان في المعابد الكثيرة التي انتشرت هنا وهناك، إرواءً لعطش الإنسان العربي إلى الاتصال بالسماء. وتقرب به إلى عالم الجبروت والملكوت بجمل نمقوها إجلالاً له، وهيبة وخوفاً وطمعاً.

ثم تطور هذا السجع، ذو الجمل القصيرة، التي لا تعنى بالوزن، إلى جمل متساوية ذات أوزان متماثلة، أطلق على وحداتها كلمة (شطر)، نسبة إلى ضرع الناقة – فيما يبدو – وتشبهاً به، وعلى مجموعها مصطلح (رجز). - الجهد الذي تبذله الناقة المريضة في النهوض مرتين وثلاثاً -، وهو الإيقاع الذي نسج على منواله، وهو أول شكل من أشكال الشعر العربي، الذي يقوم على أساس الشطر الواحد، لا البيت ذي الشطرين، كما تطور الأمر فيما بعد.

وبالتالي يتبين أنّ الرجز هو أول نوع من الشعر الشعبي.

ولأن هذا الحكم صحيح، رفض واضعو العروض العربي -فيما بعد- أن يعدوا الرجز شعراً، وقرنوه بالسجع من جديد، لكن إذا كان العرب (يترنمون به في عملهم وسوقهم، ويحدون به) فلا بد من عده شعراً شعبياً، وقد دخل الشعر من أوسع أبوابه فيما بعد، واعترف به، ورد إليه اعتباره فكان منه – وإن كان بدائياً تلقائياً جملياً.

وقد طرق مواضيع عدة، منها علاقة الأم بأولادها، وعلاقات العشاق، ومواكب الحجاج...

3- الأدب الشعبي (تحديد المفهوم والخصائص):

لا شك أن اسم (الأدب الشعبي) مصطلح عربي؛ أي مؤلف من ألفاظ عربية خالصة في العصر الحديث، وإذا ابتكر العرب هذه الصيغة فقد استعار الباحثون العرب المفهوم من الكلمة الغربية (فولكلور Folklore) في فترة الخمسينيات، منهم أحمد رشدي صالح، وفاروق خورشيد، وفوزي العنتيل، ونبيلة إبراهيم، وحسين النصار، ويواجه الباحثون العرب في تحديد مفهوم الأدب الشعبي مشكلة وضع مقاييس معينة.

1 - هناك من يعرفه بأنّ:" **الأدب الشعبي لأية أمة هو أدب عاميتها التقليدي الشفاهي، بجهول المؤلف، المتوارث جيلا بعد جيل**"[2].

إن ما يمثل الأصل في تسمية (أدب العامة التقليدي) متضمن في مفهوم الأدب الشعبي بشكل ملخص، إذ نتبنى تعبير الأدب الشعبي للدلالة على مجموعة من الأشكال التقليدية (الأساطير – الحكايات الخرافية – القصص – الأمثال – الأغاني – السير...) السائرة على ألسنة العامة من الناس، وسواء أكانت هذه الأنواع التقليدية شفوية أم أعيد كتابتها، وانتقلت فيما بعد من جيل إلى جيل.

غير أن حصر الأدب الشعبي في العراقة يعني بالضرورة إعادة إنتاج إبداعات الأدباء السابقين، لأن التقليد مناقض للتطور، والأدب الشعبي ظاهرة اجتماعية، تعبر باستمرار عن حاجات جديدة.

كما تؤدي عراقة الأدب الشعبي دورا هاما وإيجابياً في دراسة الحياة الذهنية والروحية لأسلافنا الأقدمين، وضبط التاريخ الاجتماعي لهذه المراحل الأولى من المجتمع البشري، ومن أهم صفات الأدب الشعبي وهي واقعيته، حتى وإن كان بعضه أو أغلبه يدور حول الأسطورة والخرافة والسحر، فإن ذاك الوهم والخرافة والغيب يعتبر حقائق واقعية عند مؤسس ذلك الأدب وجمهوره.

وهنا ينبغي أن نميز بين الواقعية في الأدب المدرسي والواقعية في الأدب الشعبي، في الأدب الأول فإن الواقعية تعبير عن المذهب الفني، يوظفه الأدباء من أجل التقرب إلى الشعب، ومن عناصر المذهب الواقعي في الأدب المدرسي اللغة العامية، الأمثال، شخصيات مستعارة من التاريخ، إلخ.....

غير أن هذه النزعة اصطناعية بخلاف الأدب الشعبي، فإن واقعيته طبيعية عفوية، تدل على فطرة الشعب.

لأنّ الأدب الشعبي مرتبط شكلا ومضمونا بقضايا الشعب، والخروج عن المألوف ما هو إلا قراءة بطريقة خاصة للواقع. فالعجز عن تحقيق الرغبات والانشغالات يؤدي بالمبدع إلى اللجوء إلى الخيال، إن الرموز والسحر والخيال والغرابة تعبير عن حرمان اجتماعي، يهدف إلى إعادة النظام إلى أصله، والتوازن في الإنسان.

جهل المؤلف:

إن جهل المؤلف ليس شرطاً في تعريف الأدب الشعبي، ذلك أن عددا كبيرا من المؤلفين يذكرون أسماءهم في آخر القصيدة وتاريخ نظمها أحيانا.

إن مجهولية العمل الأدبي وعدم انتسابه إلى مؤلف -مفهوم (المؤلف الجماعي) موجود في الفكر الحديث عند: لوسيان غولدمان وميشيل فوكو- وهذا يرجع إلى أن أسماء المؤلفين لم يكشف عنها في الأغلب، وصارت وسيلة حفظها ذاكرة الشعب فقط. غير أنّ الحال لم يكن كذلك في كل مكان دائما، إذْ أن عددا من الأغاني المؤلفة قديما والحديثة نسبيا تحتفظ بأسماء مؤلفيها، وترد هذه الأسماء عادة في آخر الأغنية، داخل صياغات

صوتية (الوزن، القافية، التجانس). وقد أصبحت هذه الحيلة التي لجأ إليها الشعراء للاحتفاظ بأسمائهم في النصوص معروفة الآن على نطاق واسع.

وترجع فكرة حصر الأدب الشعبي في الأثر المجهول المؤلف إلى الاعتقاد بأن هذا النوع يحظى باهتمام الجماعة الشعبية، كما أن الأثر المعروف المؤلف ليس عاجزا دائما عن تحقيق هذه الوظيفة، كما أن اشتراط (التجهيل) يؤدي إلى إلغاء الأدب الشعبي الحديث، حيث يكون صاحب النص مجهولا (الحكايات– الأمثال– الألغاز) وقائل النص معروفا (نصوص الشعر).

2 -تعريفه:" أدب العامية سواء أكان مطبوعا أم مكتوبا، مجهول المؤلف أو معروفا متوارثا، أم أنشأه معاصرون، معلمون".[3]

أدب العامية:

يذهب هذا التعريف إلى أن العامية شرط جوهري في تحديد مفهوم الأدب الشعبي، وبقدر ما تشكل اللغة جزءا هاما من العمل الأدبي فإن المحتوى لا يقل عنها أهمية، وهما عنصران متداخلان من الصعب الفصل بينهما.

ويمكن أن نوجز تقديم هذه الإشكالية في النقاط التالية:

أ/- ليس كل ما يكتب بالفصحى يكون بالضرورة أدبا رسميا، فقد لحظنا مثلا أن كثيرا من الآثار الأدبية الخالدة كتبت أو رويت بالفصحى البسيطة، وهي مع ذلك تصنف في الآداب الشفوية أو الشعبية، ومنها **ألف ليلة وليلة، والسير العربية**، فالفصحى إذن ليست شفيعا لهذا الأدب من أن يكون شعبيا. فشعبيته لا تكمن في عامية لغته، على الرغم من أن بعض هذه الآثار السردية تلتجئ في بعض الأطوار إلى الاغتراف من العامية، لغايات فنية طورا، ولعجز الرواة والساردين، فيما يبدو عن العثور على ألفاظ فصيحة طورا آخر.

ب/- فما كل ما يكتب بالعامية كذلك يعد بالضرورة أدبا شعبيا، وتجري هذه السيرة على ما يكتبه المثقفون من **مسرحيات وروايات وكلمات أغان بالعامية**، التي لا ينبغي أن ترقى إلى درجة الأدب الشعبي.

جـ/- إن صفة الشعبية التي تلازم أجناسا من الأدب، وضروبا من القول لا تكمن إذن في العامية ولا في الفصحى، وإنْ كانت العامية تعتبر أداة الأدب الشعبي وإحدى مقوماته.

3 - تعريفه "الأدب الشعبي هو المعبر عن ذاتية الشعب المستهدف تقدمه الحضاري، الراسم لمصالحه، يستوي فيه أدب الفصحى وأدب العامية، وأدب الرواية الشفاهية وأدب المطبعة"[4].

ذاتية الشعب:

لا يقدم هذا التعريف تحديدا واضحا للأدب الشعبي بقدر ما يميل إلى التعميم، من الصعب الاهتداء إلى تحديد المقصود من ذاتية الشعب، إن كلمة الذاتية يمكن أن نفهم منها دلالات مختلفة، ولكنها لا تحدد مفهوما خاصا بالأدب الشعبي.

التقدم الحضاري:

هو أنه -سواء كان شعبيا أو رسميا – يهدف إلى تحقيق هذه الوظيفة الحضارية، إن هذه الخاصية متوفرة في الأدب الشعبي، ولكنها أوضح في الأدب الرسمي، ثم إن التصور الذي يملكه الأدب الشعبي في مجال الحضارة محدود، ويختلف حتما عن الرؤية التي يتضمنها الأدب الرسمي.

4 -"الأدب الشعبي هو القول التلقائي العريق المتداول بالفعل، المتوارث جيلا بعد جيل، المرتبط بالعادات والتقاليد".

القول التلقائي:

يحدد معجم العلوم الاجتماعية (التلقائية) على أنها "القدرة على الاستجابة بأسلوب مباشر، والتكيف مع وضعية معينة".

التداول والتوارث أو التناقل الجماعي:

أسهمت الرواية الشفاهية في نقل التراث العربي الرسمي، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف يرويان شفاهيا، ويعتبر الفقهاء التواتر من المصادر الهامة، وتظل الرواية أداة هامة في نقل الأدب الشعبي الموزع بين المقلدين والمبدعين من الرواة، ولكن لا يمكن أن تكون الرواية مع ذلك شرطا أساسيا، إن اشتراط الرواية يتضمن عدم الاعتراف **بالأدب الشعبي المطبوع، مثل ألف ليلة وليلة، والسير الشعبية**، وقد زادت الطباعة هذا الأدب المكتوب انتشارا بين الناس.

إن التواتر عند الفقهاء يعتبر من المصادر الهامة في السند كالإجماع، وإذا كانت الرواية لم تصبح قيدا للتراث العربي المدرسي، فإنها بالنسبة للأدب الشعبي أداة للحفاظ عليه، ولكنها لا ينبغي أن تكون شرطا..

إنّ الأدب الشعبي جوهرة محصورة في ذاكرة شعب معين، فهو يؤلف الرأسمال الثقافي، الذي يعكس الملامح المتميزة لجماعات بشرية مختلفة، إنّ الأدب الشعبي صدى الماضي، لا يصاب بالإتلاف أو الابتدال، ينتقل من جيل إلى جيل باستمرار، ليصل إلينا متأثرا ببصمات الزمان.

كيف ينتقل الأدب الشعبي من جيل إلى جيل آخر؟ وما هي السبل التي سلكها الأدب الشعبي للوصول إلينا ؟

اعتمد الأدب الشعبي في تناقله على قناتين أساسيتين:

1-القناة الشفاهية.

2-القناة الكتابية.

الارتباط بالعادات والتقاليد للتعبير عن وجدان الشعب[5]:

يحتوي الأدب الشعبي مجموعة من العناصر التي تعود أساسا إلى الماضي، إلا أنها متميزة بالتغيير الذي يطرأ عليها عبر الزمن، وتختفي هذه الرواسب في ثناياها الحكمة والتجارب وأساليب العيش القديمة، ويعبر كلّ شعب من خلال العادات والتقاليد عن أفراحه وأحزانه، ويذاع الأدب الشعبي في مناسبات تقليدية؛ مثل الزواج، والولادة، والوفاة، وأماكن العمل والتسلية، والأسواق العمومية، ويعتمد في هذه الأماكن والظروف

نفسها على الأدب الشعبي لإدانة فعل، أو حكم على سلوك معين، ولا يركز علم الفولكلور بالدرجة الأولى على فردية الإبداع الشعبي، أي على الصورة الفردية التي يخرج بها الأثر الأدبي إلى الناس، وإنما **يهتم أولا وقبل كل شيء بالرصيد المشترك الشائع بين الأغلبية**، ولكن لا يمكن فهم هذا الرصيد المشترك الشائع إلا عن طريق هذا الشيء المتفرد، ودراسة حياة حملة هذه المنتجات الشعبية المتفردة والمتميزة بسمات مبدعيها، فكثير من الصور التي اتخذها التراث المشترك لا يمكن فهمها دون اعتبار دور القوى المبدعة للإنسان الشعبي الفرد، فتحديد إسهام هذا الفرد في التراث الجماعي أمر ضروري ومنهجي في ميدان الدراسات الشعبية.

ويبدو أنّ الأدب الشعبي قد استقر حقاً على مفهومه، في نحو بداية القرن السادس، إذْ تبين فيه اكتمال فنون الشعر واضحة منها: فن المواليا، الكان وكان، القوما، الزجل.

4 - أنواع الأدب الشعبي[6]:

– **فن المواليا:** الذي بدأ فصيحاً، ثم استقر شعبياً، على أربعة مصاريع مصرعة، أو ناقصة التصريع، كالشأن مع الدوبيت، مع ميل إلى استعمال الجناس فيه، وهو الأمر الذي التصق بهذا الفن ولم يغادره أبداً.

وقد نظم الشعراء في هذا القالب خواطرهم وملاحظاتهم وآراءهم وحكمهم، وقد نشأ هذا الفن في أواسط العراق، ومن ناحية نماذجه الأولى:

أضحت أنواف القنا تزعف وبيض الهند
تصحف ونتحب الهامات خوفاً عند
لقاسنان بن عاصم مطعم الأفرند
لحم الحجاج ومن أعيا أساة السند

– **فن الكان وكان:** الذي تتكون الوحدة الشعرية منه من أربعة فصوص غير متساوية وغير مصرعة، من بواكيره:

ما هو بحد الصوارم ولا بمشتبك القنا
إلا هـــــدايا تهدى لمن يشــا الرحمن

ولعل أهل البطائح، (الأهوار اليوم) هم الذين اخترعوه أو نشروه، إذ وجدنا ابن الجوزي يقول إبان نفيه إلى هذه المنطقة سنة 592هـ / 1195م، كما في مرآة الزمان ابن الجوزي (484/481/8:2)، وكان هذا الفنّ وعظياً في غالبه.

– **فن القوما:** وكان فناً شعبياً رباعي المصاريع كالمواليا والكان كان، لكنها قصيرة، وأول من سجل ناظماً فيه منصور بن نقطة (المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري) في قوله مخاطباً الخليفة الناصر العباسي (ت622هـ/1225م):

يا سيد الســادات لك في الكرم عـــــــادات
أنا بن ابن نقطة وأبي – تعيش أنت – مات

ونظم الشعراء في هذا القالب سحورياتهم في رمضان، كما هو معروف، وهذه الفنون الثلاثة جميعاً عراقية: من العراق انتشرت إلى آفاق العالم الإسلامي.

– **فن الزجل:** وهو الوجه الشعبي للموشح الأندلسي الفصيح، وقد انتشر على يد الوزير ابن قزمان الأندلسي (أبو بكر محمد بن عبد الملك الوزير ت 508هـ-114م)، ومن بعده ابن أخيه محمد بن عيسى بن عبد الملك القرطبي (ت525هـ / 1116م)، وانتشر في الأندلس والمغرب، وزحف إلى مصر حتى وصل العراق، وذكر أن أشعار محمد بن عيسى كانت تعرف في بغداد، مع كونها بيئة تنتشر فيها الفنون الشعرية المحلية، ومعروف أن الزجل عالم واسع، وبحر طام، كانت له فروعه الخمسة، التي اختص كل منها بموضوع، لكنها بادت حتى بقي الزجل وحده، وكأن لم تكن له فروعه تلك، ولله درّ من قال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا *** أنيس، ولم يسْمر بمكة سَامِر

المهم أنّ انتشار الفنون الشعرية الشعبية العراقية والأندلسية سجلت لنا نوعين من القوالب، أولهما الرباعي البغدادي، ومنه: العتابة

والبوذية والمربع وما إلى ذلك، والثاني المتعدد القوافي والوزن، وهو الزجل ذو الطابع الأندلسي؛ ومنه الزجل الحالي في بلاد الشام ومصر والمغرب، والحميني اليماني القديم، ومنه البدوي الذي يحاول الاقتراب من شكل القصيدة وإن كان الغالب عليه أن يكون للأشطر الأولى قافية وللأشطر الثانية قافية.

5- بين مصطلحي العامّي(الأدب العامي) والشعبي(الأدب الشعبي):

1 -**إشكالية المصطلح**: حاولنا من خلال هذه الكلمة، مراجعة ومدراسة الأدب الشعبي والأدب العامي، لكن قبل ذلك ينبغي أن نحدد المصطلحين (الشعبي) و(العامي).

يرى هوفمان كراير في بحث نشره عام **1902** أن كلمة الشعب تحتوي على مفهومين؛ أحدهما سياسي يستخدم مصطلح الأمة، والآخر اجتماعي أو حضاري، ويعتقد هوفمان أن الدراسات ينبغي أن تهتم بالشعب صاحب المفهوم الحضاري.

يعاني مصطلح (الشعبي) في الأصل غموضا والتباسا دلاليا، إذا أخذنا بالحسبان تعدد المعاني Polysémie الذي يتميز به. إن المؤلفين والدارسين الذين يستخدمون مصطلح الأدب الشعبي لا يعطون جميعا الدلالة نفسها لكلمة (شعبي)، بمعنى أن هذه الكلمة ذات قدرة على تقديم عدد وافر من الدلالات، وبذلك تتضح مشكلة هذا المصطلح.

في دراساتنا وأحاديثنا اليومية نستعمل مصطلح (الشعبي) فماذا نريد مثلا بقولنا: الأدب الشعبي، الثقافة الشعبية، المهرجان الشعبي، الثورة الشعبية، الأغنية الشعبية الخ... للإجابة عن هذه الأسئلة نقول في البداية: إن القدامى من العرب والمسلمين كانت لهم فكرة، بل وعند البعض منهم دراسات عن هذه المادة العريقة، ولكنهم وظفوا مصطلحات أخرى للدلالة عليها، وقد ذكر ابن خلدون -على سبيل المثال- أن أهل أمصار المغرب يسمون القصائد المتداولة بينهم بالأصمعيات، نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم، وأهل المشرق

من العرب يسمون هذا النوع بالشعر البدوي، أو الشعر الهلالي كما استخدم صفى الدين الحلي مصطلح الأدب العاطل.

وهنا يتحتم علينا أن نقف عند آراء الباحثين، الذين عرضوا لمفهوم الشعب بالنسبة للدراسة الشعبية. يقوم الباحث بوحبيب بتحليل دلالي لتسمية (أدبي– شعبي) ويرى أنه إذا كانت صفة الشعبي تشير إلى كيان اجتماعي وسياسي وثقافي (الشعب) فإن هذا الوصف يمكن أن يقصد به ثلاثة احتمالات:

- أدب أنتج من أجل الشعب، بصفته قارئا أو متلقيا للأدب.
- أدب يتحدث عن الشعب موضوعا للأدب.
- أدب أنتجه الشعب ذات جماعية مبدعة.

1/ إن الأدب الذي ينتج من أجل الشعب قد ينطبق على أدب المؤسسات، وأدب التجمعات معا.

2/ الأدب الذي يتحدث عن الشعب يشمل كل الآثار أو الأشكال التي تعالج السلوك الجماعي، وهذا ما لا يقبل التصنيف في خانة واحدة.

3/ ويطرح الاحتمال الثالث إشكالا منهجيا: الشعب شخصية معنوية مجردة من الملامح، بينما الأدب عملية إبداعية فردية أصلا، فكيف يكون الأدب من انتاج جماعة غير محددة في الزمان والمكان، نجد منهم من وسع رقعة الجماعة الشعبية بحيث شملت الشعب كله في مستوياته الثقافية والاجتماعية المختلفة.

ومن هنا نستطيع أنْ نحدد مجموعة من الصفات التي تميز الأدب العامي عن الأدب الشعبي.

وقد حصر الباحث محمود ذهني هذه الصفات فيما يلي:

1- يستخدم **الأدب العامّي** اللهجة المحلية التي تحررت من الإعراب، ولهذا أطلق عليه صفى الدين الحلي اسم **الأدب العاطل**، ووصفه بأن **إعرابه لحن، وفصاحته لكن، وقوة لفظه وهن**، لذلك فإن ورود ألفاظ فصيحة أو معربة في الأدب العامي يعتبر عيبا بنفس القدر الذي يعتبر ورود ألفاظ عامية في الأدب المدرسي نقصا فادحا، ومن هنا فإن

لغة الأدب العامي لا ترقى إلى التعبير عن الفكر، إذ نجدها مختصرة يصعب كتابة أصواتها غالبا، وتختلف في دلالة كثير من مفرداتها.

إن كلمة (بز) تعني في الغرب الجزائري الطفل الصغير، وفي الشرق تعني عند البعض الصغير الطائش، وعند البعض الآخر صفة للشتم بمعنى لقيط. إن الأدب العامي يتوسل بالكلمة، ولكنها غير كافية للتعبير عن الغاية؛ لذلك يستعين بالحركة التمثيلية والإشارية (حركة اليد، العين، الرأس).

2- يقتصر الأدب العامّي على البيئة المحلية، ويعبر عن احتياجات الإنسان فيها.

3- يعبر الأدب العامي عن اهتمامات محصورة في نطاق أصحابها، دون أن يستطيع التطرق إلى القضية الإنسانية العامّة أو انشغالات الجماهير الواسعة.

4- يتناول الأدب العامي موضوعات الساعة، ولهذا يكاد يكون أدبا موسميا لا يعيش إلا في حدود المشكلة التي يعالجها، فإذا ما انتهت المشكلة فقد هذا الأدب جانبا كبيرا من قيمته، فهو من حيث هذه الخاصية أقرب ما يكون شبيها بالرسوم الكاريكاتورية، التي تكن قوية التأثير وقت ظهورها المرتبط بحدث معين، فإذا مرّ الزمن على هذا الحدث فقدت قيمتها.

5- وبما أن الأدب العامي محصور في نطاق إقليم ضيق يكون دائما معروف القائل منسوبا إلى صاحبه في حدود المكان والزمان، بعكس الأدب الشعبي الذي ينتسب إلى فرد هو أول من أوجده، ولكن دوامه يدل على تداوله بين الشعب.

6- يعتمد الأدب العامي على صوتيات الكلام، ولذلك يتجه إلى الموسيقى كعامل مساعد، ولذلك كانت معظم ألوانه منظومة. قدّم صفى الدين الحلى دراسة كاملة عن الأدب العامي يقول فيها:"ومجموع فنونه عند سائر المحققين سبعة فنون لا اختلاف في عددها بين أهل البلاد، وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارقة في فنين منها، والسبعة المذكورة هي

عند أهل المغرب ومصر والشام: **الشعر القريض والموشح والدوبيت والزّجل والمواليا والكان كان والحماق**".

7- يتوقف الأدب العامي على فن الغناء، فأصبح لا يصل إلى الناس إلا بواسطة الأغنية، وصار الزجال يطلق عليه لقب الشاعر الغناي، إن الغناء الشعبي أسبق الفنون إلى الظهور، ولا سيما الغناء الجماعي الذي استخدمه البدائيون في الحرب والسلم معا. لبثّ روح التماسك بين أفراد القبيلة في مواجهة الخطر الخارجي، أو من الحيوانات أو من الطبيعة، وكذلك في المراسم والطقوس الدينية، وقد أدّى فنّ الغناء بالأدب العامي إلى فقدان ذاتيته.

وتعد الأغنية النموذج المفضل لتوضيح حدود الأدب العامي والأدب الشعبي، وبيان رواج نصوصهما الغنائية.

وهناك من الأغاني المعروفة في الأدب العامي باسم الراي، والرأي أصلا من بكائيات الأندلس، فهو لحن لأغاني الندب، لأن الأندلسيين الفارين من بلادهم التي استرجعها الإسبان، والذين نزل بعض منهم بمنطقة الغرب الجزائري، كانوا يبكون مدنهم بقولهم (ياراي ياراي لو أنك كذا)، وفي مجال الأغنية العامية يمكن أن نشيد بالمرحوم دحمان الحراشي، الذي استطاع أن يطور الأدب العامي، وينقله إلى مستوى الأدب الشعبي، ويتجاوز الحدود، ومثال ذلك (يا رايح وين مسافر).

وينفرد الأدب العامي بأن يكون أكثر أداء للأغنية المقاومة، أما الأدب الشعبي -بالنسبة للباحث محمد الفاسي في البلاد العربية- فإننا نقصد به قبل كل شيء:" ما قيل من نثر أو شعر باللغة القريبة من الفصحى، سواء عرف قائله أو كان مجهولا، ومن أشكاله السير الشعبية، والملاحم، والقصص، والخرافات، والأساطير، والألغاز، والأمثال، والنوادر، ونداءات الباعة، والنكت، والأغاني، والأذكار، والشعر الصوفي، والحكم.

أما عند الغرب فإنّ الأدب الشعبي يطلق –خصوصا- على ما يروج بين الناس من أجناس، دون أن يعرف القائل، أو ما ألف بخصوص طبقات الشعب التي ليست لها ثقافة تؤهلها لتذوق الإنتاجات الأدبية لكبار الكتاب

والشعراء وتفهمها. ويطلق كذلك على المؤلفات التي تتعرض لوصف الأحوال الاجتماعية لطبقات الشعب العامة، وبما أن اللغة العامية عند أهل الغرب ليست بعيدة عن لغة الكتابة فإن الإنتاجات الأدبية الشعبية ضعيفة.

وتوجد ظاهرة مشتركة بين الأدب **العامي** والأدب **الشعبي**، وهي أنّ هناك من الأدب العامي ما يتحول إلى أدب شعبي، وكذلك يتحول الأدب الشعبي إلى أدب عامّي، ويخضع كلّ منهما في الانتقال من مرحلة إلى أخرى لعملية التغيير، تجعله قادرا على التعبير عن الرغبات الفنية للجمهور.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) عن عبد الحميد بوسماحة، سلسلة دروس في الأدب الشعبي، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.

(2) محمد سعيدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، سلسلة دروس جامعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 12.

(3) ينظر: المرجع السابق: ص 11.

(4) ينظر: أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1971، ط3، ص 14-15.

(5) مجموعة من المؤلفين، الموروث الشعبي وقضايا الوطن، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، ولاية الوادي، 2006، ص 09.

(6) ينظر؛ كامل مصطفى الشيبي، مقال بعنوان؛ الأدب الشعبي -مفهومه وخصائصه- ص11-12. www.books6.com